ميسترال شاعرة الحنان والأمل

بقلم خليل هنداوي

ولدت هذه الشاعرة اللاتينية التي حازت على جائزة نوبل سنة ١٩٤٦، في جمهورية « شيلي » من امريكا الجنوبية ، منحدرة من اصل اسباني تمثل في رقتها وبساطتها وحدة عاطفتها . وقد جعلت من الشعر رسولاً يعبر عن أحاسيسها المتصلة بها دون ان تذهب الى الواقع المتجمد ، ولا الى الخيال المحض الذي لا يُحَدّ . في شعرها شدة الترابط بين الانتباه والتخيل ، وفيه لمعات وهاجة لا تظهر الا في جباه الشعراء .

وقد حدد الاديب الكبير ـ بول فاليري ـ اذ قدم ديوانها منزلة هذه الشاعرة بقوله : « ان التأثير الاول الذي طبعته في نفسي تلاوة مقاطيعها هو ذات التأثير الذي يتركه كائن غريب في النفس . ولكنه تأثير حق يفاجئنا كما تفاجئنا الطبيعة حين يبدو لنا انها تعرف ان تبدع من الكائنات والانواع اكثر مما نتخيله » وما كانت قوتها لتنشأ من تشابك افكار متراصة ، او ومضات صور متزاحمة معقدة ، وانما انحدرت عليك من حياة عميقة ، حساسة ، لا تخجل الانسانية من ان تعتنقها لصدقها .

هذه المرأة تغنت بعاطفة الامومة بما لم تتغن به شاعرة قبلها على كثرة من مارس هذا الموضوع . وكثيرهم الشعراء الذين قدسوا ، او لعنوا ، او ابتهلوا الى الموت ، وعالجوا الهوى وباركوه ، ولكن ما اقل من تأملوا مولد الكائن الحي من الكائن الحي ... هذا الموضوع الذي احترمته الديانات على اختلافها ، انما هو مظهر قوة لاحساس لا يُحَدّ ، ولا ينفد ، قد يبلغ غالباً حد الحنان ، او قل ، الحنان الوحشي في غيرته ومنعته . ومع ذلك تستمد هذه العاطفة روحها من منابع غير منابع الحب .

ترى بين مقطوعاتها ابياتاً كثيرة تمثل ببساطة تأثر الحياة بالحياة التي وضعتها ، حتى « ترى الام دمها الحقيقي في طفلها الذي ينام على لبنها ودمها » .

اقرأ معي هذه القطعة « نعاس » تسمع هدهدة السرير ، تُنيم الأم التي تهزه كما أنامت الطفل المهزوز . لقد غلب النعاس على الأم ، حتى خُيل اليها انها تهز بيدها العالم كله . وأن العالم يتلاشى مثلها :

« إني أهزّ ابن لحمي ودمي ...
أسكبُ ، بيدي الحبيبتين ، صورة العالم ...
العالم كله يدخل غرفتي ، من سقفها ونوافذها .
ويلقى أماً وولدها .
هذه هي الجبال ، وتلك هي السواقي .
وذلك كل ما خُلق وكان ...
اني أهز ، وأهز
فأرى متلاشياً ، ذلك الجسد الذي تلقيته مع حواسه الخمس .
ورويداً رويداً ، لا أرى سريراً ولا ولداً
العالم كله قد تلاشى ...
أنادي الذي وهبني العالم ، ومنحني صغيري ،
فيوقظني ندائي ... »

ولها قطعة تدعى « القصاصة » ؛ وما كانت هذه القصاصة الا الام التي راحت تقصُ على ابنها مختلف محاسن الوجود . فللهواء قصة وللماء والجبال والضياء قصص . والقطعة حافلة بالطبيعة والالوان :

« هذا الهواء هو الذي يعبر ويسكن .
يسرك ان تراه بدون فم .
يعرف أن يأخذك ويعانقك ...
وهذا الضياء يشف في الهواء .
ويجعلني أراك يا ولدي !
لولاه لما رأتك الاشياء التي تهواك
اذ تبحث عنك دون أن تلقاك
انه يتبدل ، ويتجول ...
ما اكتفينا به يوماً ، ولا ارتوينا
أتظن أننا نحب الوجود ، ولكنا إياه نريد ...

وذلك الماء ، ما أشد رعبك منه !
يهولك مرح هذا الشلال الذي يمتد هادئاً ،
ثم يهوي كامرأة بعقدها الابيض
في لحظة ما ادناه ! وفي ثانية ما أتاه!

والنار ... انها تقتل الظلام حين يدلهم
انها في صدري دون أن تحرقك

٦٠

انها في الاغنية التي أرددها لك ...
فحيثما كانت أحبيها يا ولدي!في الليل،والبرد والموت لانها جديرةبالتقديس والجيل الذي يحيا وحيداً ، ولكنه يهوانا،ويشير الينا أن نصعد،وينادينا وعلى السهل المظلم ، لا بيت ولا ماء يرى .
لكن أمك تعرف ان تصعد ، وتضل عن الارض وتعود
وقطع الضباب تزحف اسراباً ، تمحو خطاها معالمَ الوجود .

والبيت ، والخبز والأرض التي تفترشها حين تتعب ،
وتلعب على صدرها حين تطرب ..
واذا ماتت أمك فلا تبكِ ، فالأم التي وجدتها متحطمة ستلقاها سالمة
وليل نهار ستسمع أمك الميتة تمشي حية ... »

ولعلّ اروع ما وجدته لهذه الشاعرة في تقديس الطفولة قطعتها الموسومة « بالطفل الوحيد » وهي قطعة تمثل عاطفة الامومة الشاملة التي تجعل من نفسها اماً لكل طفل ، قريباً كان او غريباً. والامومة الحقة تحترم روح الطفولة أنى تمثلت.

« سمعتهُ يبكي فوقفت على منحنى الطريق .
واقتربت من باب الكوخ الموصد ...
اذا طفل له عينان حلوتان يرمقني
حنان غريب عميق أسكرني .
أمه تخلفت عنه قليلاً ، تيقظ يطلب ثديها وبكى ،
فاحتضنتُه ... وانسربتْ أغنية طفولية ترتعش بين شفتي .
كان القمر يطل من النافذة المفتوحة علينا .
أغفى الطفل مرة ثانية،والاغنية كأنها تجلو بلمعان غريب صدري الحاني عليه
وحين فتحت أمه الباب ، والفت وجهي مقنعاً بسعادة متفتحة ، تركت صغيرها نائماً بين ذراعي » .

وكأن الشاعرة لا تقف عند عاطفة الامومة وحدها ، فبينها وبين الامومة نسب متصل لا تتركه. يجعلها اماً للطبيعة والانسانية كلها ، حتى لتربط هذه العاطفة ما بين الطبيعة والانسانية ربطاً غريباً . فهي ام تريد الخير ، وتهب الاحسان الحياة نفسها ، اذا رأت شجرة غنية الظل ، ندية الثرى تمنت ان تستحيل شجرة تقدم للعابرين خيرات وجودها بطراوة ظلها ونداوة انفاسها .

« أيتها الأخت ، ايتها الشجرة المقيدة بجذورها ،
الشامخة بناصيتها ، المتلهفة ظمأ الى السماء !
اجعليني خصبة ، غنية لأجود مثلك .
واتركي قلبي وفكري واسعَين كالوجود
تنبثق عني خيرات لا تقطع عطائي !
ايتها الشجرة التي ما هي الا صدر ام حنون
كل غصن منك الآن يحضن كائناً في عشه الأمين . »

ولعلك ترى هذه العاطفة على اشدها في صلاتها التي وضعتها بلسان معلمة ، وليس كالمعلمة من يشرك الام في العاطفة والحنان ... تقول في هذه القطعة :

« يا الهي الذي علمت الانسان ما لم يعلم
سامحني لأني أعلم ... سامحني لاني حملت اسم المعلم الذي تحمله على الارض.
هبني محبة مدرستي ! وأقر في نفسي روح الهدوء والاطمئنان !
وانزع من نفسي هذه الرغبة النزقة للعدالة التي لا تزال تقلقني
واسلخ روح هذا النضال مني، يثور فيّ حين أُجرح .
اجعلني أماً تفوق الامهات بامومتها ،لكي استطيع ان احب،وأن ادافع مثلهن عن لحم ليس بلحمي ، ودم ليس بدمي .
واجعلني احتقر كل قوة غاشمة ، وكل تأثير لا يستوحى من تأثيرك !
اعطني السذاجة ، وامنحني التعمق ، فلا اغدو معقدة ،ولا مهذارا
دعني ارفع عيني عن صدري الجريح كلما دخلت مدرستي في الصباح ،
وانفي وساوسي وهمومي عن مقعد درسي،واجعل يدي أخف في الغضب وارق في العطف ! »

الا يمثل ما أوردناه ما ذهبنا اليه من تمكن هذه الامومة الشاملة في صدر هذه الشاعرة الانسانية ؟

ولها قطعة غريبة ، لا تستطيع ان تحس بها غير الام . تصف بها حالتها اثناء الحمل ، « فهي تحس انها حامل تخجل ان تمشي في الطريق ، وتؤثر ان تبقى في بيتها ، يؤتى لها بآنية الازهار ، وتصعد في جوها الحان القيثار، لانها تود ان تسكر بالجمال. وتؤثر – بين الحين والحين – أن تتمتع بالشمس المتفتحة كزهرة في السماء يغسل النور جسمها ، ويلون دمها ، بعيدة عن عالم البغض والصخب ، لانها تريد ان تنسج بهدوء ومحبة جسداً معجزاً بعروقه ووجهه ونظرته ، وقلبه النقي » .

على ان بجانب هذه الامومة الشاملة امومة انانية تمثل لك الام الذاتية التي تشعر من وراء امومتها انها ترى في ولدها رفيقاً يسليها ، وأنيساً يبدد وحشتها . ولا ندري :أية مرارة اوحت اليها بهذه القطعة الكئيبة ؟

« لماذا جئتَ ؟ لا أحد يحبك مهما كنت جميلا يا ولدي .
لماذا جئت ؟ ولن ترى الا دموعي ، لأن الذي جاء بك يبغضك
مذ رآك تشغل أحشائي.
ولكن ... لا! إنك أتيت من اجلي ، ومن اجلي أتيت،
لأنني مفردة وحيدة حتى عندما تشد على ذراعي يا ولدي ! »

* * *

وهناك في ديوانها – عدا عاطفة الامومة – عاطفة رقيقة تنساب خلال كائنات الطبيعة ، جعلتها كثيرة التعلق بها ، حتى احالت هذه العاطفة صداقة حساسة مع المادة نفسها ، تصلك بالمادة من ناحية طبيعتها ، لا من ناحية زينتها ، كأنما تنقل لك الروح ، وتهمل الالوان ، ولن تكلمك صورة الجبل بأبلغ مما

٦١

يكلمك صخر منحوت فيه ،او لن يكون رسم زهرة بأجمل من لحمها . وفي الديوان مظاهر عدة من هذا الشعر الغريب العميق البسيط . فاستمع معي الى ما كتبته – في محبتها للاشياء – عن الرمل .

« الرمل .. الرمل الذي مسح خطانا ، وخطى من لا نريد أن نفقدهم !
ألا أين خطى ايام فرحي ؟ والايام البطيئة ، والأيام السريعة أين هي ؟
طالما وددت أن أجمعها من الأقطار الاربعة، وأقف وسطها الترقص حولي.
لقد أضاعها الرمل ، بل عاد لا يذكرها ، وهو لا يقدر أن يردها .
الرمل غادر لانه أملس صاف...
الرمل الجديب الذي قال للعشب : « لا اريد » !
وقال للأزهار : « لا أريد » !
وقال للاشجار – الا النخيل – : « لا اريد » !
الرمل الذي يكون جافاً في المساء ، حين يطرقه المسافرون على سيف البحر ، فينامون عليه ، هو الذي يرد عليهم دفء الفراش الذي غادروه ،
الرمل ، ذو الاسرار التي لا يفقه انسان ان يقولها .

من الرمل نال الفقراء حقهم من السعادة ، بينا الآخرون تناولوها من المعادن والحجارة . بالرمل رفعوا بيوتهم التي حطمها، وأحلامهم التي تتدحرج الى الهباء . لذلك كانت سعادة الفقراء وشيكة الهلاك .

الرمل الجاف ليس له مخيلة ، لأنه لا يملك شهوة الكذب . أمامه البحر ... الخدّاع الأكبر، يلتوي أمامه على ألاعيب مرآته،ومعارض زبده ، انه لا يعرف الا تجعدات ابتسامته ، ولذلك يسخر من كل شيء الا من نفسه .

الرمل ، ذو الاقدام المتحطمة ، الذي لا يثير رغبة انسان في جمعه ، انه ، وهو الكسيح يجوز الشرفات دون وثوب ، ويطير في الليل، ويدخل في الكنائس والبيوت ، ويسقط على الحواجب ، لا ينتقي من جسدنا الا زوايا العيون .

انه الرمل الذي يعرف كلمات العظماء ، ولكنه لا يبوح بها ، ولا يسطرها حتى يجيء البحر الذي يغمره بأمواجه السكرى »

وهنالك مقطوعتها «الحجارة» التي تستنطق أحلامها من خطوطها ، وحياتها من هيأتها :

« الحجارة الراكضة ... الحجارة التي تعدو ،والحجارة التي لا تريد أبداً العودة كأنها القلوب المتعبة .
الحجارة التي تستلقي على ظهرها ، كأنها صف من المقاتلين الموتى . وطواياها يغلب عليها هيئة المتوثب ، ولكنها صامتة صمتاً صافياً .
حجارة، ملامح وجهها موزعة في كل مكان ، تتذكر وجهها القديم ، فتود لو تستعيده يوماً .
وحجارة ناعسة بالأحلام ، غنية بالارواح كقارورة الطيب . مثقلة بالأحلام كشجرة كهلة تقاصت على عقدها
وحجارة تعانق – عناق الملتزم – كنزها من الحلم المطلق .
ياللحجارة الراكعة ، والحجارة الشامخة !
ياللحجارة التي تمشي ، والحجارة التي لا تريد العودة كالقلوب المتعبة ! »

هذه كلها صور بسيطة ، ولكنها تفيض بالاحاسيس العميقة الحية .

واني ، لن أجد أبلغ من كلمتها خاتمة لهذه الدراسة ، تجعل منها نذراً تتقيد به ، وترجو تحقيقه على الحياة .

« ليسمح الله عن هذا الكتاب القاسي،وليسمح القراء الذين يشعرون بالحياة كنعمة رقيقة عني!
تحت هذه المقاطيع يتوارى ماض مؤلم،تركته خلفي في أعماق الظلام . وصعدت ، وسموتُ نحو المشارف الروحية ، حيث تنعكس على أيامي عناقيد نورانية ،
هناك ، سأنشد أغاني الأمل دون ان أرى قلبي .
وأردد من الاناشيد ما يسلي الناس .
فليساعدني الله على ان أكمل نذري هذا فيما تبقى لي من حياتي » !

حلب

خليل الهنداوي

٦٢